الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى

ليس أطرف فى دراسة التاريخ من معالجة موضوع يجمع بين الشرق والغرب ؛ وفى الوقت نفسه ليس أخطر فى التاريخ من معالجة مثل هذا الموضوع لأنه يتطلب إلماماً واسعاً بالمراجع الشرقية والغربية سواء ، وقدراً كبيراً من الحرص عند مقارنة ما يرد فى المراجع الشرقية بما يرد فى المراجع الغربية ؛ وفوق هذا وذاك فإن معالجة هذا النوع من الموضوعات التاريخيـة يتطلب تقديراً لظروف الشرق وظروف الغرب وعقلية الشرق وعقلية الغرب وطبيعة الشرق وحضارته وطبيعة الغرب وحضارته . . . .

وتاريخ الإمبراطور فردريك الثانى مثل بارز لهذا النوع من الموضوعات ، فقد اعتلى عرش الأمبراطورية المقدسة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أى فى عصر ملىء بالأحـداث بالنسبة للغرب الأوربى وبالنسبة للشرق العربى ثم بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب . ويكفى أن نذكر ذلك العصر بالذات شهد فى غرب أوربا دوراً من أعنف أدوار النزاع بين البابوية والأمبراطورية أو بين السلطتين الدينية والعلمانية من أجل سيادة العالم(١) ؛ وشهد فى الشرق العربى التطورات السريعة التى ألمت بمصر والشـام عقب وفاة صلاح الدين ؛ كما شهد الاتصال القوى الشديد بين الشرق والغرب وهو الاتصال الذى اتخذ طابعاً حربياً عنيفاً فى صورة الحروب الصليبية مثلما اتخذ طابعاً فـكرياً سلمياً فى صورة ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب فضلا عن إقبال الغرب الأوربى على علوم العرب وحضارتهم وامتصاص كل ما أمكن امتصاصه من رحيق الفـكر العربى والحضارة العربية عن طريق الترجمة والنقل والمحاكاة .

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٩ .

وفى جميع تلك الأوجه المتباينة من النشاط البشرى الذى ساد الغرب والشرق جميعاً فى القرن الثالث عشر، أسهم الإمبراطور فردريك الثانى بسهم وافر ملحوظ، زاد من وقعه وأثره شخصية ذلك الإمبراطور ونشاطه الفكرى وغير الفكرى، مما جعل جمهرة الكتاب والمؤرخين يجمعون على تلقيبه بلقب واحد مشترك هو Stupor Mundi أعجوبة الدنيا(١)، والحق أن فردريك الثانى كان أعجوبة فعلا فى تصرفاته وسلوكه، أعجوبة فى آرائه وأفكاره. وربما كانت مظاهر العجب فى ذلك الإمبراطور لا تبدو أشد وضوحاً وجلاء منها فى علاقته بالعرب والمسلمين، ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على الظروف التى أحاطت بذلك الإمبراطور فى الغرب الأوربى لنستطيع فى ضوئها أن نفسر تصرفاته إزاء العرب والحضارة العربية.

ولد فريدريك الثانى من أب ألمانى هو هنرى السادس وأم إيطالية هى الأميرة كونستانس وريثه صقلية، ونشأ وتربى وتعلم فى صقلية، وهى الجزيرة التى كانت فى العصور الوسطى بحكم موقعها وتاريخها ملتقى الحضارات العربية الإسلامية والبيزنطية اليونانية والرومانية اللاتينية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات، يجيد ست لغات منها اللغة العربية، ويتذوق الشعر العربى وغير العربى، هذا كله فضلاً عن مهارته فى السياسة والقانون والعلوم الطبيعية(٢). وقد أفاض جمهرة المؤرخين — العرب والأوربيين سواء — فى وصف حب فردريك للمسلمين وإعجابه بحضارتهم وعلومهم وحياتهم وتقريبه لهم، واستخدامهم فى حاشيته حتى أن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل فرض فى معسكره. وذكر المقريزى أن فردريك كان « عالماً متجراً فى علم الهندسة والحساب والرياضيات »، وأنه بعث من صقلية للسلطان الكامل الأيوبى بعدة مسائل مشكلة فى الهندسة

---

(١) Bryce: The Holy Roman Empire, pp. 203-204.

(٢) Kantorowicz: Frederiêk the Second, pp. 293-295.

والحكمة والرياضة ، فعرضها السلطان على الشيخ علم الدين قيصر المنفى — المعروف باسم تعاسيف — وأرسل جوابها إلى الأمبراطور(١) .

ولكن إذا كان فردريك الثانى قد نشأ تلك النشأة الغريبة التى ليس لها مثيل فيمن سبقه أو تبعه من أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ؛ فإن هناك وجهاً للشبه بينه وبين أسلافه من أباطرة تلك الإمبراطورية فى الغرب ؛ وأعنى بذلك التشابه اشتراك فردريك الثانى فى معركة الصراع بين البابوية والإمبراطورية بل إنه الإمبراطور الذى اختتم قصة النزاع مع البابوية وأسهم فى آخر حلقاتها فى العصور الوسطى . حقيقة إن البابوية ساعدت فردريك الثانى فى الحصول على حقه فى عرش الإمبراطورية وأيدته حتى تم له القضاء على خصمه ومنافسه أوتو الرابع سنة ١٢١٤ وتوجته أمبراطوراً سنة ١٢٢٠ فى روما(٢) . ولكن الأمبراطور الجديد فردريك الثانى سرعان مانسى كل ذلك ولم يعد يذكر إلا شيئاً واحداً هو أنه خليفة قيصر وأوغسطس وشارلمان وأنه بناءاً على ذلك يعتبر الزعيم الأوحد للعالم بوصفه ممثلاً للسلطة الإمبراطورية العليا ، وأن الكنيسة ورجالها وعلى رأسهم البابا يجب أن يعترفوا له بالسمو والزعامة . وهكذا لم يكتف الأمبراطور فردريك الثانى بتوطيد مركزه فى صقلية وجنوب إيطاليا بل أخذ يعمل على تأكيد سلطانه على المدن اللمباردية فى شمال إيطاليا مما هدد بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى وجعل البابا ينظر إلى سياسة فردريك الثانى بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل(١) .

وكان ذلك سنة ١٢١٥ عند تتويجه بمدينة أكس عندما وعد فردريك — لأول مرة — بالقيام على رأس حملة صليبية إلى الشرق ثمناً للمساعدة التى لقيها من البابوية فى الوصول إلى حكم الإمبراطورية وفى سنة ١٢٢٠ جدد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) Barraclough : The Origins of Modern Germany, p. 214 & Tout : The Empire and the Papacy, pp. 364-365.

الأمبراطور وعده الصليبي عند تتويجه أمبراطوراً بمدينة روما ، ولـكن السنوات أخذت تمر والأعوام تتوالى دون أن يقوم الإمبراطور بحملته المزعومة ، فى وقت كانت البابوية تتوق إلى ارسال حملة صليبية قوية لتحقق ما أخفقت فى تحقيقه الحملات الصليبيةالسابقة(٢) . على أن مماطلة الأمبراطور فردريك الثانى فى الخروج لمحاربة المسلمينأمر يسترعى الانتباه ولايسعنا تفسيره إلا فى ضوء تخوف الأمبراطور من أن يترك الغرب من ناحية وحرصه على ألا يدخل فى حرب ضد المسلمين من ناحية أخرى . أما عن الجانب الأول فإنه لايخفى علينا أنه كان من المجازفة بالنسبة لفردريك أن يترك أمبراطوريته المقدسة فى ألمانيا وإيطاليا وصقلية فى الوقت الذى اشتدت سطوة كبار أمراء الإقطاع فىألمانيا وتألبت المدن اللمبارديةضد الإمبراطور فى شمال إيطاليا ؛ وتربصت البابوية للأمبراطور وأرادت أن تحل به الـكوارث فى ألمانيا وإيطاليا جميعاً(٣) .

وأما بالنسبة لعدم رغبة فردريك الثانى فى الدخول فى حرب ضد المسلمين فهذا أمر ثابت لايستبعد على إمبراطور عرف بالتسامح الدينى الشديد فى عصر طفح بروح التعصب الدينى ؛ وعرف بحبه للمسلمين بل للاسلام ، زمن اشتدت كراهية الغرب الأوربى للعروبة والإسلام . وقد أفاض جمهرة المؤرخين العرب والأوربيين فى وصف حب فردريك الثانى للمسلمين وحضارتهم ، بعدما لمسوه من تصرفاته وأقواله . فالقاضى جمال الدين بن واصل يقول عن فردريك الثانى « وكان مايلاً إلى المسلمين لأن مقامهفى الأصل ومرباه بلاد صقلية . . . وأهل الجزيرة غالبهم المسلمين »(٤) . ثم إن أفعال الإمبراطور نفسه عندما حضر إلى الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الإسلام والمسلمين . من ذلك أن فردريك

---

(١) Banaclough : op.cit., pp. 222-228.

(٢) Cam. Med. Hist. vol., 6, pp. 144-146.

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ ب (مخطوط) سنة ٦٢٥ هـ .

حرص أثناء وجوده فى بيت المقدس على زيارة المسجد الأقصى،وهناك أطال البقاء حتى يحل موعد الصلاة ويسمع آذان المسلمين ، ولـكنه لم يسمع شيئاً . ولما استفسر عن السبب فى ذلك قيل له أن السلطان الـكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين فى بيت المقدس بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الأمبراطور بالمدينة ، وذلك « إعظاماً للملك واحتراماً له » . وعندئذ استاء فردريك والتفت إلى مرافقه شمس الدين قاضى نابلسى وقال له « أخطأت فيما فعلت ؛ والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل ! »(١) .

وهنا يصح أن أضيف سبباً آخر دفع فردريك الثانى إلى التقرب من المسلمين والإسلام ، هو كرهه للبابوية والـكنيسة الغربية ، تلك الـكنيسة التى ناصبت آباءه وأسـلافه العداء والتى كرست جهودها لسحق الإمبراطورية وسلطانها فى الغرب . وقد ظهر هـذا الشعور أيضاً أثناء وجود فردريك الثانى فى الشام ، إذ يروى ابن واصل أنه سأل الأمير فخر الدين عن الخلافة الاسلامية وحقيقـة مركز الخليفـة عند المسلمين ، فأجاب الشيخ فخر الدين بأن الخليفة ينحدر من نسل العباس عم الرسول وأنه بناءاً على ذلك يمت إلى الرسول بصلة القربى ، مما يخوله حقاً شرعياً فى حكم المسلمين . وعندئذ أجاب فردريك بأن هذا هو المنطق السليم ، لا مثل البابا الدجال الذى لا تربطه أية رابطة بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق فى حكم المسيحيين . وقد دفع هذا السلوك مؤرخاً مثل العينى إلى القول عن فردريك « الظاهر من كلامه أنه كان دهرياً وإنما كان يتلاعب بالنصرانية(٢)

وهكذا لا يستبعد أن تـكون كراهية فردريك الثانى للبابوية والـكنيسة الغربيـة هى التى دفعته إلى حب الإسـلام والمسلمين ، وقد قال بهذا الرأى فولتير ومنتسكيو (٣) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ سنة ٦٢٦ هـ .
(٢) العينى : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٦٢٦ هـ .
(٣) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 280.

على أنه إذا كان فردريك الثانى قد أخذ يماطل البابوية طويلا فى تحقيق وعده الصليبى ؛ فإنه لم يستطع أن يستمر حتى النهاية فى تلك المماطلة لا سيما بعد أن استجدت ظروف فى الغرب والشرق شجعت الإمبراطور إلى اتخاذ تلك الخطوة على كره منه . أما فى الغرب فقد سعى البـابا هنريوس الثالث إلى إتمام زواج فردريك الثانى من الأميرة يولاند ابنة حنا برين وهى وريثة مملـكة بيت المقدس. وكان أن تزوج فردريك فعلا من تلك الأميرة سنة ٢٢٥ وبذلك ظهر دافع جديد يجعل الإمبراطور يفـكر فى الذهاب إلى الشام ليتوج مع زوجته بتاج مملـكة بيت المقدس . ويقال إن الإمبراطور أعلن للمرة الثالثة عند زواجه عزمه على القيام بمشروعه الصليبى ، بل حدد سنة ١٢٢٧ لتنفيذ ذلك المشروع(١) .

وثمة سبب قوى شجع الإمبراطور فردريك الثانى على الخروج إلى الشرق هو أن الـكامل الأيوبى صاحب مصر أرسل يستعين به ضد الأخطار التى واجهته من ناحية أخيه المعظم ثم من ناحية الخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية . ذلك أن الاتحاد الذى قام بين أبناء العـادل الأيوبى الثلاثة — وهم الكامل صاحب مصر والمعظم صاحب دمشق والأشرف صـاحب الجزيرة وخلاط — هذا الاتحاد لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ بعد أن تم التغلب على الحملة الصليبية الخامسة وطرد الصليبيين من مصر(٢) . ولم يلبث جشع المعظم عيسى صاحب دمشق أن أدى إلى إثارة العداء بينه من جهة و بين أخوية الـكامل والأشرف من جهة أخرى ، فى الوقت الذى تحرك الخوارزمية على أطراف الجزيرة ، مما جعل الأشرف يتناسى الخلاف مع أخيه المعظم ويهرع إليه فى دمشق طالباً للعمل بسرعة على توحيد جبهة البيت الأيوبى ضد ذلك الخطر الجديد . ولـكل المعظم استغل الفرصة التى أتيحت له فقبض على أخيـه

---

(١) Kantorouwicz ; op.cit., p. 139.

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٢٣ .

الأشرف فى دمشق ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى مهاجمة أخيهما الثالث وهو الكامل فى مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم حتى فر إلى أخيه الكامل وأكد تحالفه معه ضد المعظم ، وبذلك وضع الأخوان خطة للتخلص من أخيهما المعظم(١) .

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى نشب عندئذ بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية فاستنجد الملك المعظم بالخوارزمية فى حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثانى . وقد أسرع جلال الدين منكبرتى سلطان الخوارزمية بتلبية نداء المعظم فأرسل إليه « خلعه لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »(٢) . أما الكامل فى مصر فقد أرسل إلى الأمبراطور فردريك الثانى فى صقلية مبعوثاً خاصاً هو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ليطلب من الأمبراطور « أن يحضر إلى الشام والساحل و يعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل »(٣). وقد أحسن الأمبراطور فردريك الثانى استقبال الأمير فخر الدين مبعوث الملك الكامل ؛ ومن ذلك الوقت نشأت صلة صداقة وطيدة بين فردريك الثانى من ناحية والأمير فخر الدين من ناحية أخرى ، إذ يبدو أن كلاً منهما أعجب بشخصية الآخر وأخلص له . ثم إن فردريك لم يكتف بأن وعد مبعوث الكامل بالحضور ومساعدته ، بل رد عليه بارسال سفارة مماثلة إلى مصر معها « هدية سنية وتحف غريبة » فتلقى الكامل رسول الأمبراطور وهديته بالسرور البالغ « وإكرمه إكراماً زائداً » كما اهتم الكامل بإعداد هدية فاخرة للامبراطور « فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم »(٤) . وجدير بالذكر أن هذه السفارة الإمبراطورية

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .
(٢) العينى : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ & المقريزى : : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٣٢ .
(3) Wielt: L'Egypte Arabe, pp. 350-351. (٣)
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

اختارت أن تمر فى طريق عودتها إلى الغرب بمدينة دمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للأمبراطور ؛ ولكن المعظم أساء مقابلة مبعوث الإمبراطور « وأغلظ له وقال : قل لصاحبك (فردريك) ما أنا مثل الغير (الكامل) وماله عندى سوى السيف »(١) .

هذا هو الموقف فى الشرق العربى فى الوقت الذى أخذت البابوية تضغط على فردريك الثانى للقيام بحملته الصليبية ، علّه ينجح فى إصلاح الموقف الناجم عن فشل حملة حنا برين على مصر وهى الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١) . وإذا كان البابا هنريوس الثالث قد توفى سنة ١٢٢٧ فإن خليفته جريجورى التاسع امتاز بإرادة حديدية رغم تقدم سنه ، فأبى قبول الأعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور فوراً إلى الشرق (٢). وكان أن أبحر الإمبراطور فعلا من برنديزى قاصداً بلاد الشام ، ولكنه عاد بعد أيام مدعياً المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضاً ، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور لم يكن سببه مماطلة فردريك الثانى فى الوفاء بعهده الصليبى فحسب ، بل أيضاً تخوف البابوية من سياسة ذلك الإمبراطور فى إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص(٣) . ومهما كان الأمر فإن هذا الإجراء فتح باب النزاع على مصراعيه من جديد بين البابوية والإمبراطورية . ويبدو أن البابا جريجورى التاسع كان عنيفاً فى هجومه على الإمبراطور ، الأمر الذى اضطر فردريك الثانى إلى الخروج قاصداً الشرق فى صيف سنة ١٢٢٨ على رأس قوة صغيرة من رجاله ، بعد أن انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده(٤) .

---

(١) العينى : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 164.

(٢)

(٣) Creighton : A Hist. of the Papacy, p. 26.

(٤) Archer : The Crusades, p. 381 & Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 451.

وهكذا شاءت الظروف أن تكون الحملة الصليبية السادسة التى تزعمها الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٨ هى أغرب الحملات وأشدها طرافة فى تاريخ الحركة الصليبية فإذا كانت الحملات الصليبية السابقة واللاحقة قد تزعمها ملوك وأمراء ينعمون بدعاء البابوية وعطف الكنيسة حتى استمد أولئك الزعماء الصليبيون نفوذهم من ذلك العطف والرضاء ، فإن الحملة الصليبية السادسة خرجت إلى الشرق وعلى رأسها إمبراطور ملعون من البابوية مطرود من رحمة الكنيسة منبوذ من المجتمع المسيحى . وإذا كان زعماء الحملات الصليبية قد حرصوا عند خروجهم من الغرب على حشد الجيوش وجمع الجموع الغفيرة استعداداً لمنازلة المسلمين فى الشرق ، فإن الإمبراطور فردريك الثانى لم يصطحب معه عند مغادرته الغرب سوى خمسمائة أو ستمائة فارس وهى قوة لا تكفى للصمود فى معركة محلية صغيرة ضد المسلمين فى الشام . وإذا كانت الحملات الصليبية قد أتت إلى الشرق وهى تفيض بروح الكراهية والتعصب ضد المسلمين والرغبة فى الثأر والانتقام منهم ، فإن حملة فردريك الثانى امتازت بمسحة فريدة من التسامح الدينى ، بل شعور الود والمجاملة تجاه المسلمين .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثانى أتى إلى الشام ليفاوض لا ليحارب ، معتمداً على وعود السلطان الكامل له وهى الوعود التى نصت على تسليم بيت المقدس للامبراطور مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم[1] ». وهنا نلاحظ أن فردريك الثانى لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرة الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبى بالشام بغية إعداد الجو للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التى أوردها القلقشندى وهى عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد أحد أمراء بنى أيوب بالشام إلى الإمبراطور فردريك الثانى رداً

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

على رسالة كان فردريك قد بعث بهـا إلى ذلك الملك الأيوبى . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبى والتى يقول فيهـا « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الـكاملى الناصرى ... من أنه لا فرق بين المملـكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده وخالص وده [1] » ... ومن هذا نخرج بنتيجتين هامتـين أولاهما أن مراسلات فردريك الثانى قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الـكامل وحده وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بنى أيوب والنتيجة الثانية هى أن تلك المراسـلات حفلت بروح الود والأخاء هى أن الـكامل أرسل إلى فردريك يخبره بأنه لا فرق بين المملـكتين .

على أن فردريك الثانى لم يكد يصل إلى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ حتى وجد الموقف فى بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ البابوية والحروب الصليبية — أخذ يرسل الرسل إلى ملوك بنى أيوب بوجه عام والسلطان الـكامل بوجه خاص محرضاً إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور. ولا عجب فى هذا الموقف الغريب الذى اتخذته البابوية، إذ كانت المعركة بينهـا وبين الإمبراطورية أهم فى نظرها من المعركة القائمة بين المسلمين والصليبيين فى الشام . وكان البابا جريجورى التاسع يعلم جيداً أنه إذا قدر لفردريك الانتصار فى مهمته واسترداد بيت المقدس من المسلمين فإن ذلك سيكون فى نظر المعـاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحروم ، وفى هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجورى أو بين البابوية والإمبراطورية .

ثم إنه إذا كان فردريك الثانى قد أتى إلى الشـام بعد أن وضع كل أمله فى وعود السلطان الـكامل بتسليم بيت المقدس ، فإن هذا الأمل انهار فجأة لتغير سياسة الـكامل . ذلك أن المعظم صـاحب دمشق الذى كانت أطماعه

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٧ — ١١٨ .

هى السبب فى استنجاد الكامل بفردريك ، كان قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧ تاركاً إبنه الناصرداود وهو شاب صغير فى العشرين من عمره عديم الخبرة محباً للهو؛ مما مكن الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما المعظم وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانوية(١) . وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبى على ذلك فإن السلطان للكامل لم يعد فى حاجة إلى فردريك ومعونته . ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل فى ذلك الموقف لأن فردريك الثانى لم يحضر إلى الشام إلا بناءاً على طلب السلطان ؛ وفى ذلك يقول ابن واصل والمقريزى « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه(٢) . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبى أنه يصطدم بالصليبيين بالشام فى تلك المرحلة التى تعرضت بلاد العراق والشام ومصر لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر فى ملاطفته للامبراطور فردريك . وفى الوقت نفسه أحس الكامل أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التى كانت أكثر إحساسا بخطر الصليبيين من غيرها(٣) .

وهكذا ساء موقف فردريك الثانى فى الشرق ، وتذكر أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعد الكامل له باعطائه بيت المقدس فى إصلاح مركزه فى الغرب الأوربى . ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً ، أو لأستعد استعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب معه جيشاً كبيراً عند خروجه إلى الشرق .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ & ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٦٢٥ هـ.
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ & المقريزى : السلوك ج ص ٢٢٩ .
(٣) Grousset, III, p. 300.

ولـكن بعد أن جرت الأمور على ذلك الوضع ماذا يفعل فردريك بالخمسمائة فارس الذين أحضرهم معه ؟ إنه لا يستطيع الاعتماد تماماً على تعاون الصليبيين معه فى بلاد الشام ، لأن أى مسيحى مخلص كان يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الـكنيسة مطرود من رحمتها حتى ولو كان هذا الرجل أمبراطور الدولة الرومانيـة المقدسة . وإذا هو رجع فاشلاً إلى الغرب ماذا سيكون موقفه بعـد أن أعطى البابوية سلاحاً جديداً للتشهير به والإقلال من شأنه ؟ إن المسألة بالنسبة لفردريك الثانى كانت تعنى مستقبل عرشـه فى الغرب الأوربى ومستقبل معركته ضـد البابوية ، لأن نجاحه فى استرداد بيت المقدس سيكون قبل كل شىء انتصاراً له على البابوية . ويفسر هذا الشعور ما قاله فردريك نفسه فى تلك المرحلة لصديقه الأمير فخر الدين من أنه «ماله غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج »(١) .

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثانى سوى سلاح واحد هو سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوربى موضوع الرأس .

لذلك أسرع فردريك الثانى إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الـكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأوان ذهبيـة وفضية ، وتطالبه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن الـكامل أعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للأمبراطور ثمناً للمساعدة التى يقدمها له الأمبراطور ضد أخيه المعظم ، أما وقد تبدلت الظروف ومات المعظم واستغنى الـكامل عن المساعدة ، فلا داعى للتفريط فى بيت المقدس . ولم تفلح جهود الأمير فخر الدين يوسف مندوب السلطان فى المفاوضات بين الطرفين فى الوصول إلى حل يرضى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

الإمبراطور والسلطان ، فساء موقف فردريك الثانى لاسيما بعد أن جاءته الأخبار من إيطاليا بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته كما أشاع فى الغرب بأن الأمبراطور مات فى الشام وأنه لا يوجد من يحسن الوصاية على ابن الأمبراطور القاصر سوى البابا نفسه . ولعل هذه الأخبار كانت كافية لدفع فردريك الثانى وهو الأمبراطور العظيم إلى التذلل للسلطان الكامل حتى حكى أنه كان يبكى بكاءاً مراً فى مراحل المفاوضات(١) .

ولا أدل على هـذا الشعور من رسالة أرسلها الأمبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثناء المفاوضات ، ومع ما لهذه الرسالة من أهمية فإن مرجعاً واحداً من المراجع الأوربية أو العربية التى عالجت تاريخ فردريك الثانى لم يشر إليها . وقد جاء فى هـذه الرسالة على لسان الأمبراطور موجهاً خطابه للسلطان « أنا مملوكك وعتيقك وليس لى عما تأمره خروج وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتى بينهم ! وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم . فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقه منه ! ويرتفع رأسى بين ملوك البحر »(٢) .

ولم تلبث هـذه الاستعطافات أن نجحت فى التأثير على السلطان الكامل للتنازل عن بيت المقدس لفردريك . ويبدو أن ما قام به الأمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى اتفاق الأمبراطور و بقية الصليبيين بالشام للقيام بعمل حربى مشترك ضد المسلمين . وقد فسر المقريزى هذا الشعور بقوله إن الكامل « خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته »(١) .

---

(١) Kantorowicz: Fredrick the Second, p. 185.

(٢) المكتبة الصقلية ج ٢ ص١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوافى بالوفيات) .

(٣) السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

ولا شك فى أن المغامرة فى حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئذ كانت تعنى بالنسبة للكامل وقوعه بين ثلاثة أعداءهم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى — الذى استنجد به الناصر داود من ناحية ثالثة . وفى ضوء هذه الحقائق كلها وافق الكامل — تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف — على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى فى فبراير سنة ١٢٢٩ . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات،على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هى عليه فلا يجدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام(١) .

وهكذا استطاع فردريك الثانى مع ضعف وسائله وإمكانياته أن يحقق من النتائج ما عجز عنه ريتشارد قلب الأسد بجيوشه الضخمة وإمكانياته الكبيرة ، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً . على أن اتفاقية يافا قوبلت بالسخط الشديد من المسلمين والمسيحيين جميعاً . فمن ناحية المسلمين نجد أن تسليم بيت المقدس على ذلك النحو للصليبيين ، وهى المدينة التى استردها صلاح الدين للمسلمين بعد جهاد عنيف ، أثار موجة عامة من السخط والأسى فى العالم الإسلامى . وقد أسهب المؤرخون العرب فى وصف ألم المسلمين لضياع بيت المقدس وكيف أقيمت المآتم والجنازات فى المدن الكبرى مثل دمشق واشتد بكاء الناس وصريخهم ، كما « اشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار »(٢) . وسرعان ما أحس السلطان الكامل أنه « تورط مع ملك الفرنج » على قول المقريزى ، فحاول أن يهون

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٦٢٦ هـ & المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ & الع : عقد الجمان سنة ٦٢٦ هـ & أبو الفدا المختصر سنة ٦٢٦ هـ .

من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ويبرر مسلكه فقال « إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع » ! . أما الإمبراطور فردريك فقد أحس من جانبه بما سببه من حرج للسلطان الكامل فاعتذر للأمير فخر الدين » بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك(١) » .

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أظهروا استياءهم من هذه الإتفاقية ، بل غضب الصليبيون أيضاً فى الشام وفسروا غضبهم بصور شتى . فبعضهم قال إن كرامة المسيحية كانت تتطلب أخذ بيت المقدس بحد السيف لا عن طريق الاستجداء والاستعطاف مثلما فعل فردريك الثانى ! لا سيما وأنه ترتب على حصول الصليبيين على القدس بالطرق السلمية أن المسلمين احتفظوا بكثير من حقوقهم فيها واستبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وهو ما لا يجب أن يكون !(٢) والبعض الآخر قال بأنه لا قيمة لحصول المسيحيين على بيت المقدس بدون الأردن والكرك ، وأنه لو أن المسيحيين رأوا أن هذا الحل مقنعاً لرضوا به عندما عرضه الكامل على الصليبيين فى مصر أيام الحملة الصليبية الخامسة ، ولكنهم رفضوه عندئذ لأنهم أدركوا أنه لابد من إحياء مملكة بيت المقدس كاملة بما فيها أراضى الأردن(٣) . أما الداوية والاسبتارية فقالوا أنه لا قيمة لأى عمل أو نجاح يحققه الأمبراطور ، ما دام ذلك الإمبراطور محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها ، هذا فضلاً عن غضب الداوية لأن الإمبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذى كان مركزاً للداوية فى القدس حتى عام ١١٨٧(٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) Stevenson : The Crusades, p. 313.

(٣) Runciman : A History of the Crusades, III, p. 188.

(٤) Setton : op.cit., II, pp. 426-427.

وعندما علم جيرولد بطرق بيت المقدس أن الأمبراطور فردريك الثانى ينوى زيارة المدينـة ، وقع قرار الحرمان على القـدس نفسها وعلى كل من يستقبل الأمبراطور فيها من سكانها المسيحيين . ومع ذلك فقد شق الأمبراطور طريقـه إلى بيت المقدس ليتسلمها من مندوب السلطان ، وعندما رفض أحد من رجال الـكنيسة أن يتوج الأمبراطور فى كنيسة القيامة لأنه محروم ؛ أمسك فردريك الثانى التاج بيده ووضعه على رأسه . ويرى بعض المؤرخين أن فردريك الثانى قصـد أن يتوج نفسه بيده فى كنيسة القيامة ، ليعلن فى ذلك المكان العالمى أنه لم يتسلق التاج الأمبراطورى عن طريق أحـد من رجال الدين ، وأن الأمبراطور يتسلم سلطانه من الله مباشرة دون وساطة مخلوق(١) . وهذا تفسير له دلالته فى قصـة النزاع بين البابوية والأمبراطورية . وجدير بالذكر أن الأمبراطور فردريك الثانى قام بكثير من الأعمال والتصرفات أثناء إقامته ببيت للمقدس التى أثارت دهشة المسلمين والمسيحيين سواء . من ذلك أن فردريك الثانى رأى قسيساً بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى ، فزجره الأمبراطور وطرده وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال « إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره ! »(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن إقامة الأمبراطور فردريك الثانى لم تطل فى بلاد الشام ، لأن مصالحه فى الغرب كانت أهم بكثير فى نظره من مصالح الصليبيين فى الشرق . لذلك أبحر فردريك الثانى من عكا فى أول مايو عام ١٢٢٩ قاصداً قبرص حيث قضى عـدة أيام ثم بارحها إلى إيطاليا فوصلها فى ١٠ يونيو عام ١٢٢٩ . وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية التى اتصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها . ومهما

---

(١) Kantorowiez: Frederick the Second, p. 199.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .

يقال فى أمر فردريك وتصرفاته فإنه لا يمكن إنكار الكسب الكبير الذى حققته المسيحية باسترداده بيت المقدس . وهنا نشير إلى نقطة لم تهتم بها المراجع التى عالجت تاريخ فردريك الثانى وحملته الصليبية ، هى أنه ما كان لذلك الإمبراطور أن يصل إلى ما وصل إليه من نجاح فى حملته الصليبية لولا أن الظروف شاءت أن يكون على رأس البيت الأيوبى فى مصر والشام عندئذ سلطان اتفق مع فردريك الثانى فى طباعه وكثير من صفاته . فإذا كانت المراجع قد أجمعت على حب فردريك للعلم والعلماء ، وعلى حرصه على مجالسة رجال العلم واشتغاله بالرياضيات والحكمة فإن ابن واصل والمقريزى يذكران عن السلطان الكامل أنه « كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ... وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده ... وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه »(١) . وإذا كانت المراجع قد أسهبت فى وصف تسامح فردريك الثانى وعدم تعصبه ، فإن الكامل أيضاً اشتهر بتسامحه المطلق وبعده عن التزمت ؛ وهو التسامح الذى بلغ حد التفريط فى بيت المقدس وإصدار الأوامر المشددة إلى المؤذنين فى المسجد الأقصى بعدم إحياء أذان الصلاة طيلة مدة بقاء الإمبراطور فى المدينة حرصاً على شعوره(٢) .

وهكذا نستطيع أن نقرر أنه لولا التوافق الشديد بين الكامل وفردريك فى الطباع والميول والعقلية لتعذر على الأمبراطور فردريك الثانى أن يصل إلى ما وصل إليه من نتائج بتلك السهولة .

وخير ما يثبت أن العلاقة بين الكامل وفردريك لم تعد علاقة مصالح متبادلة، وإنما أدى التقارب النفسى والفكرى بين الرجلين إلى نوع من الصداقة ، أن

---

(١) ابن واصل ج ٢ ورقة ٢٢٦ & المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .
(٢) العينى : عقد الجمان ؛ ج ١٨ قسم ١ ص ٨٢ — ٨٣ .

العلاقات بينهما لم تتوقف برحيل فردريك إلى الغرب ، وإنما تمسك كل منهما بصداقة الآخر وظلا حتى النهاية خير مثال للصديقين الوفيين . ويقال إن فردريك بعد عودته إلى الغرب كان لا يفتأ يردد أمام أصدقائه « إن صديقى السلطان المسلم أثمن لدى من أى شخص آخر ما عدا ولدى الملك كونراد » كذلك كان من ألقابه التى اعتز بها دائماً « فردريك هو هنشتاوفن صديق الملك المسلم » . ويقال إنه فى أخريات أيام حياته كان كلما وقع فى ضيق يتنهد قائلاً « آه لو كان صديقى الكامل على قيد الحياة ! »(٢) .

ثم إن هذه الصداقة بين فردريك والكامل استمرت تعبر عن نفسها عملياً بعد عودة فردريك إلى الغرب . من ذلك ما يرويه أبو المحاسن من أن فردريك أرسل إلى السلطان الكامل عام ١٢٣٣ عدة هدايا « فيها دب أبيض وشعره مثل شعر السبع ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله ومعه أيضاً طاوس أبيض »(٣) .

وقد استمرت الصداقة قائمة بين فردريك الثانى وسلاطين مصر بعد وفاة الكامل . من ذلك ما أشارت إليه المراجع من أن الإمبراطور فردريك حرص على تحذير الصالح أيوب عندما علم بنية لويس التاسع ملك فرنسا بتوجيه الحملة الصليبية السابعة ضد مصر عام ١٢٤٩ . والغريب أن جميع المؤلفات العربية التى صدرت فى السنوات الأخيرة عند حروب لويس التاسع فى مصر والشرق اكتفت بالإشارة إلى مارددته المراجع الأوربية من أن فردريك حذر الصالح نجم الدين أيوب من نية الملك الفرنسى فى مهاجمة مصر ، وخلت جميع هذه المؤلفات من إشارة إلى ورود هذا التحذير فى مرجع من المراجع العربية المعاصرة . ويسرنى أن أشير إلى أننى عثرت أخيراً على نصوص صريحة فى بعض المراجع العربية المعاصرة تؤيد ماورد فى المراجع الأوربية من قيام الأمبراطور فردريك

---

(١) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 192.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٣ .

بتحذير السلطان الصالح . ومن ذلك ما يقوله المقريزى بالحرف الواحـد « ونزل (السلطان الصالح نجم أيوب) بقلعة دمشق ، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر ، وأخبره سراً بأن بواشن الذى يقال له رواد فرنس (لويس التاسع) عازم على المسير إلى أرض مصر وأخـذها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفـة ونزل بأشموم طناح فى المحرم سنة سبع وأربعين »(١) .

ومن الواضح أن هذا النص العربى يؤيد صحة الرواية التى وردت فى الوثائق اللاتينية الغربيـة من قيام فردريك بتحذير الصالح نجم الدين أيوب فعلاً مما يدل على استمرار الصـلات الودية بين الإمبراطور فردريك الثانى وحكام الشرق العربى حتى وفاة ذلك الإمبراطور فى منتصف القرن الثالث عشر .

سعيد عبد الفتاح عاشور

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ؛ ج ١ ص ٢١٩ (طبعة بولاق) كذلك ذكر سبط ابن الجوزى ما نصه « إذ كانت الأخبار تتواتر إلى الملك الصالح بحركة ريد افرنس من جهة الانبرور ملك بلاد الانبردية وانبولية ، فإنه كان مصـافياً للملك الكامل أبيه فكذلك له » . (المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥١٧) .